

أبو الفتح الإسكندري بطل مقامات بديع الزمان وشخصيته المجهولة



د / محمد عبد المنعم خفاجي (*)

- ١ -

فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى ، ظهر فى النثر
الأدبى فن جديد هو فن المقامة ، والذى يؤكد البحث أن بديع الزمان
الهمذانى هو رائد هذا الفن الجديد ، الذى فتح به البديع باب القصة
القصيرة فى الأدب العربى .

فالمقامة هى قصة قصيرة من الأدب الساسانى ، الكدية أهم
أغراضها، يرمى بها منشئها إلى تصوير الشخصيات بأسلوب القصة ، وفى
قالب يتراوح بين الجد والهزل ، والفكاهة والعبوس .
إنها محاولة كبيرة لخلق القصة الفنية فى الأدب العربى .

والحوار فى المقامة عند بديع الزمان يدور بين رجلين عيسى بن
هشام (الراوية) وأبو الفتح الإسكندري (البطل) ، وعند الحريرى بين أبى

(*) أستاذ الأدب العربى - جامعة الأزهر.

زيد السروجي (البطل) والحارث بن همام (الراوية) .
 وكان ابتكار البديع الهمداني (٣٥٩ - ٣٩٨ هـ ، ٩٦٩ - ١٠٠٧ م)
 في القرن الرابع الهجري لفن المقامة حدثاً أدبياً جديداً في الأدب العربي .
 فلقد بهر الأدباء والنقاد والرواة أسلوبها ، ونزعة القصة فيها ، وهذا
 الحوار الذي طالما دار بين بطلها أبي الفتح الإسكندري وراويها عيسى بن
 هشام ، كما بهرهم هذا النموذج الفني الرفيع الذي يمثل شخصية الساساني
 أبي الفتح (البطل) .

- ٢ -

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتاناً شديداً .
 وليس هناك إلا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة في الأدب العربي ،
 وصاحب الفضل في إنشائها ، ويؤيد ذلك الحريري أبو محمد القاسم بن علي
 البصري (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) في مقدمة مقاماته ، فقد جعل ابتداع المقامات
 راجعاً إلى بديع الزمان ، وعلامة همدان ، وكذلك جعل الشعالي في
 (اليتيمة) البديع أبا عذرتها ، والواضع لأصولها وخطتها ، ويتابعهم في ذلك
 كثيرون ، منهم مارون عبود مثلاً ، إذ يقول (١) إن خطة المقامات من عمل
 البديع ، فهو الذي ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذه التي شقها سارت
 عجلة الأدب ألف عام ، وعبثاً يحاول المحاولون العثور على أثر لهذه الخطة
 عند غير البديع .

^١ ٢٤ (بديع الزمان) لمارون عبود .

وكذلك ذهب مازن المبارك الذي يقول (٢) : " فُتِحَ البديع باب فن جديد هو فن المقامة في الأدب العربي " .

هذا هو الرأي السائد في نشأة المقامة ، ولكن الحصري صاحب كتاب (زهر الآداب) يذهب في كتابه (٣) إلى أن البديع اقتبس فن المقامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١ هـ) ، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكي مبارك (١) أن البديع ليس هو المبتكر لفن المقامة ، وإن كان له فضل في نشأتها ، وينفى مؤلف كتاب (بديع الزمان رائد القصة القصيرة) وهو الدكتور مصطفى الشكعة (٥) أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامة كما عرف عند البديع .

ويجعل آخرون البديع محتثياً حنو أستاذه ابن فارس (تـ ٣٩٥ هـ) في رسائله الحوارية .

ويذكر آخرون ، ومن بينهم شوقي ضيف (٦) أن البديع إقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه في البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد عن أهل الكدية ، ومع جواز ذلك في المضمون ، فإن شكل المقامة الفني يبقى جديداً كل الجدة عند البديع : وهناك على أية حال فرق بين البذرة والثمرة في أى عمل أدبي أو غير أدبي .

^٢ ص ١٦ (مجتمع الممذاني من خلال مقاماته) - مازن المبارك .

^٣ ١ : ٢٣٥ (زهر الآداب) .

^٤ (النشر الفني) لزكي مبارك .

^٥ ص ٢٠٧ (بديع الزمان) للشكعة .

^٦ ٢٠ (المقامة) لشوقي ضيف - طبع دار المعارف .

ويجعل بعض المستشرقين أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان هما الملهمتان للبديع بفكرة المقامات ، ويذكر آخر أن قصص جحا في الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر في نشأة المقامة ، وهذا كله كلام يعوزه الدليل ، ولا تنهض به الحجة (٧) .

ويذهب آخرون إلى أن المقامة مقتبسة من أصل فارسي ، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت في الأدب الفارسي قبل بديع الزمان ، إذ لم تعرف المقامة في الأدب الفارسي إلا بعد البديع بنحو قرن ونصف على يدى حميد الدين البلخي (تـ ٥٥٨هـ ، ١١٦٤ م) وقد بدأ بكتابة مقاماته عام ٥٥١ هـ وقبل وفاته بسبع سنوات ، ويؤكد محمد تقى بهار أن المقامة من إبتكار البديع وأن البلخي كتب مقاماته مقلداً البديع والحريرى فى هذا الفن الأدبى (٨) .

وهذه القصة الحوارية القصيرة ، ذات المنهج الفنى الملتزم ، والصياغة الطريفة ، والصنعة الجديدة ، والفكرة الساسانية ، التى دعت مقامة ؛ قد أنشأها بديع الزمان الهمذانى ، لتجابه مطالب الحياة الفنية الأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة فى عصره .

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلاً ساسانياً هو (أبو الفتح الإسكندري) ، وهو الذى مثل كل أدوارها ، ونهض بجميع فصولها وقام بكل أحداثها .

٧ راجع ١٤٦ (الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى) لكاتب هذا المقال .

٨ (تاريخ تطور النثر الفارسى) محمد تقى بهار - ص ٤٩ .

- ٣ -

وشخصية أبى الفتح - كما تبدو من خلال المقامات - شخصية رائعة حقاً ، فهو بطل الموقف كله فى المقامة ، وهو - كما يصوره الهمذانى - عالم وأديب وشاعر ، وهو ناقد بليغ ، ومغامر محتال ماهر ، مشرد فى الآفاق ، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد أمامه إلا الكدية والاحتيال بكل أسلوب من أجل المال والطعام . وهو إلى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها ، عركها وعركته يجوب الآفاق ويخطب فى الأندية ويهز الناس بفصاحته وبلاغته .

وكنية أبى الفتح لعل البديع رمز بها إلى فتوحات هذا البطل وانتصاراته فى مواقفه العجيبة فى الكدية .

أما وصف الإسكندري الذى لازمه فقد يكون معزراً لذلك المعنى على أنه نسبة إلى الإسكندر ، فتكون فتوحات أبى الفتح فى أموال الناس شبيهة بفتوحات الإسكندر .

وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر فى مقاماته قوله (إسكندرية دارى) (١) نسبة إلى الإسكندرية لا إلى الإسكندر الأكبر المقدونى (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م.) ويصح لنا أن نجمع بين الأمرين ، فتكون نسبته إلى الإسكندرية مقصوداً بها إلى الرمز إلى شبيهه فى فتوحاته الساسانية بفتوحات الإسكندر الذى ينسب إلى مدينته .

^١ راجع مثلاً فى المقامة الأربعين - العلمية - قول البديع :

إسكندرية دارى لوفرفيها فرارى

ويقودنا ذلك إلى التساؤل : أية إسكندرية كان يعنى البديع ، وكان

ينتسب إليها أبو الفتح الساساني ؟

فى المقامة التاسعة الجر جانية يقول أبو الفتح البطل متحدثاً عن نفسه : " إني أمرؤ من أهل الإسكندرية من الثغور الأموية " ، وفى المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول : " من الثغور الأموية والبلاد الإسكندرية " .
ويكرر أبو الفتح نسبته إلى الإسكندرية فى مواضع كثيرة أخرى .

فإذا رجعنا إلى ياقوت (١٠) وجدناه يذكر أن الإسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه ، ثم تغيرت أسماؤها بعده ، فمنها : إسكندرية مصر ، والإسكندرية التى صار اسمها سمرقند ، والتى صارت مرو ، والتى سميت بعد بإسم بلخ ، وإسكندرية الأندلس التى على النهر الأعظم - نهر إشبيلية - وهى التى رجحها الإمام محمد عبده لوصف البديع لها أنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس فى القرن الرابع الهجرى عصر البديع ، إلا أنى وجدت رحالة عربياً فى القرن الرابع - هو أبو دلف - يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند ، ويقول عنها : " إن الخليفة الأموى مقيم بها (١١) " ، فهل كانت هذه المدينة قديماً تسمى الإسكندرية أيضاً ، ليصبح أمامنا احتمال جديد آخر ، ويذكر باحث عراقي أن الإسكندرية بين بغداد والحلة (١٢) ، ولكن ما صلتها إذن بالثغور الأموية ؟

^{١٠} ١ : ٢٣٥ (معجم البلدان) .

^{١١} هذا النص منقول عن (معجم البلدان) راجع ٥ : ٣٠٩ (معجم البلدان) .

^{١٢} رسالة دكتوراه عن مقامات الحريري لطارق العوسج .

ويذهب د. عبد الوهاب عزام إلى أن صحة الكلمة (الأموية) نسبة إلى نهر أموى (١٣) - جيحون - وبذلك تكون الإسكندرية المقصودة هي مدينة الإسكندر على نهر أموى .

- ٤ -

ومع ذلك كله فلا نزال نسير في بيداء حقيقة .
فمن أبو الفتح الإسكندري إذا ؟
هناك رأى سائد : أنه شخصية أسطورية خيالية محضة ، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام ، يقول الحريرى فى مقدمة مقاماته :
" كلاهما مجهول لا يعرف (ونكرة لا تتعرف) " وهذا ما رجحته منذ عشرين عاماً فى كتابى (الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى) (١٤) ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسى إيوار ، فىقول : " وضع البديع شخصاً خيالياً ابتكره وسماه أبا الفتح " .. وذهب بعض الباحثين إلى أن عيسى بن هشام راوية المقامات كان شيخاً للبديع ، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩ هـ) مؤلف "تاريخ همذان" وينقل ذلك عنه ياقوت فى معجم الأدباء ولعل ذلك وهو ناشئ من قول البديع فى مطلع كل مقامة من مقاماته : حدثنا عيسى بن هشام ، ولو ذهبنا إلى أن أبا الفتح هو الذى كان أستاذاً للبديع لكان ذلك أكثر صلة بالبحث ، وأكثر انطباقاً على الموضوع .

^{١٣} ٢٣٤ (بديع الزمان) للشكعة - نقلاً عن محاضرات د. عزام - فى كلية الآداب - عام ١٩٤٤ م

^{١٤} ص ١٤٧ الكتاب المذكور - طبع القاهرة ١٩٥٧ .

وممن ذهب إلى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب (بديع الزمان) وهو الدكتور الشكعة الذي يقول : " حاولنا أن نجد لبطلى المقامات صدى تاريخياً فلم نعثر لهما على أثر والغالب أنهما من ابتكار خيال البديع نفسه (١٥) " .

وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ويذهب إلى ذلك بعض المستشرقين (إلا أنهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين) ، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية وأنا معهم فى ذلك . ولكنى أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبى الفتح بطل المقامات البديعية .

يذهب باحث عراقي (١٦) سبق الإشارة إليه إلى أن أبا الفتح هو البديع نفسه .

ويذهب باحث آخر إلى أن الكدية أو الساسانية (١٧) التى كانت صناعة

١٥ (بديع الزمان) ص ٢٣٢ .

١٦ هو طارق عبد الوهاب العوسج - فى رسالة للدكتوراه عن (مقامات الحريري) .

١٧ يمثل الأدب الساساني فى المقامات تمام التمثل ، حيث نجد البطل أبا الفتح نموذجاً لجماعات الساسانيين والمشعوذين والختالين والسائلين والجواله الذين يجوبون البلاد ، ويتفننون فى اختراع الحيل للحصول على المال ، فتراهم مجاهدين أحياناً أو من أبناء السبيل أحياناً أخرى ، ويطلق عليهم (بنو ساسان) أو الساسانيون نسبة إلى ساسان وهو أمير من الأسرة الساسانية حرم من الملك فاشتري غنماً وأخذ يرعاها ، الساسانيون أسرة فارسية حكمت إيران وأولهم أردشير (٢٣٦ - ٢٤١ م) وآخرهم يزديجرد الثالث (٦٣٢ - ٦٥١ م) - (ص ٤٧ : ٥٥) دائرة المعارف الإسلامية ، ويذهب محمد عبده إلى أن الساسانيين هم أمراء الفرس الذين أخذوا يسألون الناس بعد سقوط ملكهم وذهاب دولتهم .

أبى الفتح (نجد من أعلامها فى عصر البديع من يشبه أبى الفتح من وجوه كثيرة : كابن الحجاج (تـ ٣٩١ هـ) ، وابن سكرة (تـ ٣٨٥ هـ) وأبى الورد ، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبى حيان التوحيدى ، بل البديع نفسه ومن

يشبهه كل الشبه (كأبى دلف) و (الأحنف العكبرى) (١٨) . ومجمل هذا رأى أن أشباه أبى الفتح الإسكندري كثيرون فى عصر البديع ، وأن أقربهم شَبْهاً به هو أبو دلف والأحنف . وهذا رأى لا يأتى لنا بجديد ولا بأمر مؤكد فى البحث فى أية حال ، فلم يجزم هذا الباحث برأى معين له . ورأى الذى أذهب إليه اليوم هو أن أبى الفتح إنما هو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البديع ، وهو أبو دلف الخزرجى وحده (٣٠٠ - ٣٩١ هـ) .

وهذا رأى لا يسبقنى فيه باحث ، وبه يفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب فى القرن الرابع ... ودليلنا عليه هو ما قاله الثعالبى فى (يتيمة الدهر) (١٩) قال :

" أنشدنى بديع الزمان لأبى دلف ، ونسبه فى بعض المقامات إلى أبى الفتح الإسكندري " .

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور

^{١٨} ص ٢٣٤ (الأدب فى ظل بنى بويه) للزهرى - طبع مصر ١٩٤٩ .

^{١٩} ٣ : ٢٥٤ (يتيمة) .

لا تلتزم حالة ولكن در بالليالى كما تدور (٢٠)

ومن هذا النص نعرف الحقائق الآتية :

أنشد البديع الثعالبي شعراً لأبى دلف .

وهذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته إلى أبى الفتح ، فتكون

النتيجة هى أن أبا الفتح هو أبو دلف ، نفسه بإقرار البديع .

كان البديع راوية لشعر أبى دلف ، ويبدو لى أن البديع كان ينزل أبا

دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم .

- ٥ -

وإن يكون أمامنا رأى جديد نجزم به ، هو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف أستاذه وصديقه ومعاصره بطلاً للمقامات ، وكنى عنه بأبى الفتح ، وكان أبو دلف أروع نموذج ساسانى يصلح بطلاً للمقامات لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صور به البديع فى شخص أبى الفتح الإسكندري ، ولأن شهرة وتجارب أبى دلف كانت تصلح معيناً يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح وذلك ما قد كان .

بل إنى أضيف إلى ذلك أن البديع الهمدانى حين سمع قصص أبى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد واستمتع إلى فكاهات هذا الشيخ وسمره فى مجالس الملوك والوزراء رأى الصورة الفنية

^{٢٠} هذا الشعر فى المقامة القريضية إحدى مقامات البديع

تصلح أساساً لفن جديد ابتكره وسماه (المقامة) ، فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب الذكي بابتكار فن المقامة في الأدب العربي ، في القرن الرابع ، وفي عصر أبي دلف (٢١١) .

- ٦ -

فمن هو إذن أبو دلف ؟

أبو دلف (٣٠٠ - ٣٩٠ هـ ، ٩١٣ - ١٠٠١ م) عالم وطبيب وكيميائي وجيولوجي ، وهو رحالة من أعظم الرحالة الجغرافيين المسلمين ، وهو أديب وشاعر ، وعلم من أعلام الشعر الساساني في عصره ؛ فهو نموذج رفيع للساسانية التي تتميز بالظرف والذوق وحلو الفكاهة وحضور البديهة مما حبه إلى الملوك ، وقربه إلى الوزراء .

ترجم له الثعالبي في الجزء الثالث من كتابه (يتيمة الدهر) ترجمة ذكر فيها نصوصاً من أدبه وشعره ، وقد كتبت عنه كتاباً بعنوان (أبو دلف عبقرى من ينبع) .

اتصل أبو دلف بالأمير الساماني بصر بن أحمد (٣٠١ - ٣٣١ هـ) في بخارى وصار رفيع المكانة في دولته وعند رئيس وزرائه الجيهاني (٢٢)

وبعثه سفيراً له إلى الهند ثم إلى الصين ، وعاد من رحلاته فاتصل

٢٢ أدب أبي دلف الساساني لم يكن احترافاً منه ، وإنما هو عبقرية الإبداع الأدبي عند الموهوبين بين الأصل والصورة والطبع والصنعة ، فلم يكن ساساني حرفية ، بل ساساني الفن وحده

٢٣ راجع عنه تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشوفسكي ص ٢١٩ - ٢٢٣

بالبويهيين وبالصاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥ هـ) ، وبعضد الدولة (٣٦٧ - ٣٧٣ هـ) وبأعلام عصر البويهيين ، وصار مقرباً منهم ، عزيز الجانب عندهم .

ويروى الثعالبي في اليتيمة شعراً كثيراً لأبى دلف وهو فى عداد الشعر الساسانى ومنه قصيدته الساسانية المشهورة :
جفون دمعها يجرى لطول الصد والهجر
وفيهما يقول :

بنى ساسان والحامى الـ حمى فى سالف العصر
على أنى من القوم الـ بها ليل بنى الغر
، وقد نظمها أبو دلف وأنشدها الصاحب بن عباد وطارت شهرتها بين الأبناء
والشعراء ؛ ولا نقول عنها إلا إنها وثيقة أدبية كبيرة الدلالة فى العصر
العباسى ، وأنها من أرفع نماذج الشعر الساسانى ، وهى حافلة بالبلاغة
والصور والأخيلة العجيبة .
وبعد أن كتبت ذلك وجدت آدم متر فى كتابه (الحضارة الإسلامية
فى القرن الرابع) (٢٢) يذكرها ويقول عنها : " إنها وثيقة اجتماعية فى القرن
الرابع " .

٢٢ : ١٠٧ (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع) .